ليس الحجر مدائن صالح

يُطْلق الناس الآن اسم مدائن صالح على الوادي الواقع شمال مدينة العُلا ، المعروف باسم الحِجْر ـ بكسر الحاء المهملة وإسكان الجيم وبالراء ـ ذي الاثار التي تناولها الباحثون بالدراسات الوافية .

والواقع أن إطلاق ذلك الاسم على هذا الوادي خطأ ، وقع فيه الناس منذ عهد قديم . وتوضيح هذا :

(ا) أنَّ الحِجْر هو الوادي الذي ورد ذكرْ في القرآن الكريم، وورد النهي عن الشرب من مائه سوى بئر الناقة التي كانت معروفة إلى عهد قريب ، لأن هذا الوادي كان منازل قوم غضب الله عليهم فأهلكهم قبل ظهور الإسلام بعصور مجهولة .

وهذا الوادي لايزال معروفاً باسم (الحِجْر) عند سكان جهاته ، وعند غيرهم ، لا خلاف في ذلك .

(ب) وفي جنوب مدينة العُلا بنحو ٥٥ كيلا آثار عمران قديم ، من أُسس بناءٍ ، ومجاري مياه وآثار زراعة ، يطلق على موضعها الآن اسم غريب هو (المابيات) جمع (مابِيَّة) بالميم المفتوحة بعدها ألف فباءٌ موحدة مكسورة فهاءٌ ـ وهذا الاسم حادث ، فقد كان الموضع في القرن السابع الهجري وما قرب منه يعرف باسم مدينة صالح ، ثم مدائن صالح .

وله قبل ذلك اسم آخر أُرَجِّحُ أنه (الرَّحبة) الوارد في كثير من كتب الرحلات ومعجمات الأمكنة . فَنُسِي اسم الرحَبَة ، واسم مدينة صالح ـ أو مدائن صالح ـ وعرف باسم وادي (العطاس) على ما جاءَ في « رحلة ابن بطوطة » الذي مَرَّ بهذا الموضع في عشر الثلاثين من القرن الثامن ، مع أن

الوادي كان معروفاً باسم وادي الدَّيْدان ، الذي نجد له في الكتب الأعجمية وما عُرب عنها صورًا غريبة (ددان) و (دادان) و (ديدان) .

(جـ) وادي الدَّيدان ، الذي تقع فيه مدينة صَالح التي عرفت باسم مدائن صالح – ليس مُتَّصِلاً من حيث الجوار بوادي الحِجْر الذي قَرَّر العلماءُ أخيرًا عدم سكناه ، بل يفصل بينهما مسافة من الأرض تقارب خمسين كيلا . بل تزيد(١) .

(د) أما كيف نشأ الخطأُ فهو أن الحِجْر كان من منازل قوم النبي صالح عليه السلام فكذبوه ، فأهلكهم الله ، ونَجَّا صالِحًا والذين آمنوا معه ، وقد ذكر الله خبرهم في سُوَر من القرآن الكريم ، ومنها (سورة الحِجْر) في الآية الحادية والثمانين منها : (وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحابُ الحِجْرِ المُرْسَلينَ * وآتيناهم آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْها مُعْرِضِيْنَ * وكَانُوا يَنْحِتُوْنَ مِنَ الجِبَال بيوتًا آمِنِين * فأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِيْنَ) .

وقد بقيت آثار القَوْم ، في البيوت المنحوتة في الجبال ، وفي الآبار المحفورة في الوادي ، وفي غيرها . فكان المسافرون الذين يذهبون من الحجاز إلى الشام أو من يمرون بهذه الجهات يشاهدون تلك الآثار ، ويتناقلون أخبارها ، من الكتب أو من الرواة ، وكثير من رواة الأخبار ومُدَوِّنيها لايلتزمون الدِّقَّة وتَحَرِّي الصواب فيما ينقلون أو يكتبون ، فوقع الخلط بين الآثار الواقعة شمال مدينة العُلاَ في وادي الحِجْر ، وهي آثار سابقة وبين الآثار الواقعة جنوب مدينة العُلاَ ، وهي مما حدث في صدر الإسلام ، وساعد على وقوع الخلط أن الموضع الأخير الواقع جنوب العُلاَ كان يُعْرَف بمدينة صالح ، وهو رجل مسلم من بني العباس ومدينته هذه كانت قائمة إلى القرن الرابع الهجري كما سيأتي – وأن الموضع الأول الذي هو الحِجْرُ ، الواقع شمال العُلاَ عُرِف

(١) أنظر تفصيل هذا في مجلة « العرب » س ١٢ ص ١٦١ وما بعدها .

سكانه بقوم صالح ، وعرفت إحدى آباره ببئر ناقة صالح ، وعرف موضع في أحد جباله بمسجد صالح - أي المكان الذي كان يتعبدُ فيه .

ومن هُنَا أُطْلِقَ على الحِجْرِ خطأً اسم (مدائن صالح) .

وأقدم من رأيته فعل ذلك ما عُرِّب لي من مؤلف تركي اسمه « بهجة المنازل » أو « نهجة المنازل » مؤلفه يدعى محمد أديب الموقع الروحي - على ما جاء في كتاب « إيضاح المكنون » [1] فقد نُقِلَ عن كتابه أن الحجر يعرف بمدائن صالح أو قرى صالح ، أو عدالى ، والمساكن في مدائن صالح منحوتة في الصخر ، ولايسكنها أحد ، ويقول : إن هناك جبلا يعرف باسم (أنان) في مرتفع منه يوجد مسجد صالح (ع . ص . م) وهو منقور في الصخر .

أما أوَّل من وقع منه الخلط بين الموضعين فوصف الموضع الواقع جنوب العُلاَ بِصفات الحِجْرِ فأقدم نَصٍّ اطلعت عليه هو ما جاء في رحلة البلوي الأندلسي ويحسن إيراده كاملاً . قال خالد بن عيسى البلويُّ الأندلسيُّ في رحلته « تاج المفرق في تحلية أهل المشرق » وقد حج سنة ٧٣٨ - قادماً من الشام مع حجاج الكرك ، في وصف الطريق إلى المدينة : (ثم سرنا من تبوك في مهامه .. إلى أن وصلنا العُلاَ بعد مدًى بعيد ، وعناء شديد ، وهي بُلَيْدَة ذات منظر جميل ، كثيرة المياه والنخيل ، بينها وبين تبوك مسيرة ثمانية أيَّام نهارًا وليلا ، وهي مسافة لها مهابة ومخافة ، تتعب فيها الركاب ، وتفقد الرفقاء والصحاب ، وقديماً ضربتِ العامَّةُ بها مثلاً فقالت : تُرِكَ أبوك بين العُلاَ وتبوك .

ثم رحلنا من العُلاَ صباحًا ، وسِرْنا غُدُوًّا ورواحًا إلى أن وردنا بئراً يقال

---

(١) : ١-٦٩٦

(٢) نشرت « العرب (ملخص كلامه عن الحجاز وطريق الحج س ١١ ص ٨٢٨-٧٥٣

لها بئر الناقة ويعنون بالناقة هنا ناقة النبي صالح عليه السلام - فوافينا البئر بجهد عظيم ، وعطش عميم ، وهجير كأنّما أرسل من نار الجحيم ، فبتنا بها .

ثم أدلجنا منها وتبَلَّجَ الفجر ونحن نسير في مدن النبي صالح - عليه السلام ، فعاينت منها عجباً عظيماً ، بيوتاً منحوتة من الصخر ، ومجالس مكونة من الجبال لاتفنى إلى آخر الدهر ، وغرفاً معلقة في الهواء مأوى للنسر ، وقصوراً مقصورة على الوحوش والطير ، كما قال وهو أصدق القائلين: (وتَنْحِتُونَ مِنَ الجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ) فأدرك النَّاسُ العِبَر ، وعايَنُوا مَنْظِرًا لاتشرحه عبارةُ الخبر ، لايخبر عنه إلامنظره ، ولا يشفي من حديثه إلا محضره وما عدا ذلك فنجم سماء ، ونقطة ماء .

كما قَابَل الزَّندُ بركَانَ نَارٍ وحيَّا الثمَادُ القـليـلُ بحـارًا

ولمْ نزلْ نسير ، وقد جدَّ المَسِير ، وحمي الْهَجِير ، وعُدِم الماء ، وتحكم العناء ، وعمَّ العطشُ والإعياء ، وكاد أن يَسْتولي علينـا الفناء .

ولذَّةُ الجسم بذاك الضنا وراحةُ قلبيَ ذاك الألَمْ

ولم تزل الحال كذلك حتى وردنا ماء هديَة ، فأغثنا به غلل الأكباد ، وعادت الأرواح للأجساد .

ولما شارفنا أرض هدية ، تفاءلنا بأن تكون لنا هدية ، وقصد عربان العلا أن يتخذونا كاسمها ، ويجعلونا في الدروس كرسمها ، فضربوا على ذنب الركب في رأس المضيق ، وأذاقوه دون بَرْدْ الماء بأطراف الأسنّة عذابَ الحريق ، فانبرى من صرفهم عن تلك النيَّة ، وصافحهم بيد المنيّة) .

فالرحالة - وهو قادم من الشام متوجه جنوباً إلى المدينة يقول : (ثم رحلنا من العُلاَ صباحًا ، وسرنا غُدُوًّا ورواحًا) ثم ذكر أوصافاً تنطبق على الحجر ، وسمى الموضع (مدن صالح) فخلط بين الموضعين ، ونقل أوصاف أحدهما إلى الآخر .

ويحسن أن نورد من نصوص علماء الشام ممن وصف الطريق مايوضح مانقدّم .

١ ـ قال إبراهيم بن شجاع الحنفي في كتاب ألفه سنة ٦٢٣ ـ فيما نقل عنه ابن العطار[١] في وصف منازل طريق الحج من دمشق إلى مكة المكرمة ـ بعد ذكر الأُخيضر والحاكة والأقارع ـ : (الثانية والعشرون : الحجْرُ ، أرض ثمود ، نصف طريق مكة ، بينها وبين دمشق ثلاث مئة ميل ، ومئة فرسخ ، أرض رمل ، وتلال وجبال ، ووادٍ به ماءٌ معتمد ، يُسمى ثمد الروم ، حفائر مطر أسود رويّ ، يسلكون بمضيق وارتفاع وانحطاط موضع شبيه باب عالي واسع ، اسمه باب ناقة صالح عليه السلام ، ثم مدائن ثمود ، أرض دائرة ، يحيط بها جبال ، وباب مقابل إلى فرجة أرض دائرة أُخرى بها آثار عمارة ، ومغاير منحوتة ، على باب كل مغارة صورة لوح ، منحوت عليه أسطر كثيرة غير عربية وبالمقابر رِممٌ باليةٌ ، وآبار كثيرة ونبعٌ طيِّب ، وروي النهيُ عن شُرْبِها ، وأن لايُتَطهَّر منه ، بل يسقَى منها الدواب .الثالثة والعشرون : العُلاَ : أرض رمل أبيض بين جبلين عاليين ، ثم مَضيْقٌ ، ثم وادي ، ونبات كثير ، ثم عيون ، ثم مدينة العُلاَ وسط الوادي ، نخل كثير وثمر ، والمدينة صغيرة ، وبها قلعة صغيرة على رأس جبل صغير ، وعيون عذبة يُزْرَعُ عليها ، ولها أمير ، ويودعون بها أمتعتهم الرابع والعشرون : الحفائر : أرض رمل وتلال وجبال ، ووادٍ مُتّسع يسمى الدَّيْدَان ، ومدينة صالح ، بها بقايا بنيان وبيوت ، وقلعة خراب برأس تَلٍّ عال ، وآبار نبْع طيبة ، وعين ماء ، وفضاء ، وحفائر مطر) .

٢ ـ وقال الحسن بن عمر بن حبيب الدمشقي ثم الحلبي الشافعي

---

(١) : « العرب » س ١٠ ص ٨٧٠

(٧١٠ - ٧٧٩ هـ)[١] في أرجوزته « دليل المجتاز بأرض الحجاز[٢] » في وصف طريق الحج من دمشق إلى مكة المكرمة - بعد ذكر بركة المعظم والمنصف وثمد الروم :

بِمبْرِكِ النَّاقَةِ يَامَا نَظَرُوا — من العجائبِ الَّتي لا تُحْصَرُ
جاؤوا سُحَيْرًا نَحْوَ بِئْرِ الحِجْرِ — وأوْرَدُوْا الْمَطِيَّ عِنْدَ الْفَجْرِ
وَشَكَرُوْا ربَّ الْبَرايا والْعُلاَ — وأدْلَجُوا حَتَّى دنَوْا مِنَ الْعُلاَ
ذاتِ النَّخِيلِ والعُيُونِ الدافِقَهْ — والثمَرَاتِ والجبالِ الشاهِقَهْ
بِهَا أَرَاحُوا الإِبِلَ المُجِدَّهْ — وأوْدَعُوا الزَّادَ لأَجْلِ الرَّدَّهْ
ثُمَّ يَسِيرُونَ لِمُدْنِ صالِحِ — وَكُلُّ قَلْبٍ لِلْمَسِيْرِ جَانِحِ
ونَظَرُوا آثارَ قَوْمٍ بَادُوْا — وَخَلَّفُوا وراءَهُمْ ما شَادُوا
جَلَّ الَّذيْ أَهْلَكَهُمْ إذْ كَفَرُوْا — بِرُسْلِهِ ، وكذَّبُوا وفَجَرُوا
وافَوْا إلى حَفَائِرِ الزمُرُّدِ — واللهُ خيْرُ حافظٍ ومُسْعِدِ

٣ - وقال محمد بن علي بن طولون[٣] الدمشقي المتوفى سنة ٩٥٣ في كتاب « البرق السامي في تعداد منازل الحج الشامي » ما نصُّهُ : (ثم دَخَلنا أرض مبارك الناقة بعد العشاء ، واستمرَّ بنا السير إلى أن عشينا قِبْليَّ المبرك الكبير بتلك الرُّبا ، بالوادي ، وقد حصل على الناس مشقّة .

ثم رحلنا عند طلوع الشمس من الغد ، فمررنا على الجبل اليتيم ، وهو قطعة جبل كبير منفرد ، شمالي الوادي المذكور ، ثم على أبيار الحجر .

(١) انظر ترجمته في « الدرر الكامنة » ومن مؤلفات المطبوعة « نسيم الصبا » .
(٢) نشرتها مجلة « العرب » س ١٢ من ص ٤٠٦ إلى ص ٤١٤ عن مخطوطة (دار الكتب الظاهرية) بدمشق رقم ٦٩٢٧ .
(٣) نشرته مجلة « العرب » س ١٠ من ص ٨٦٩ إلى ص ٩٠٥ وهو يصف مسيرة إلى الحج سنة ٩٢٦ .

وأوائل مدائن صالح ، قال ابن ناصر الدين في مسودة « توضيح المشتبه » له :

ومدائن صالح التي بالقرب من العلا من طريق الحاج من الشام بلد إسلامي ، وصالح المنسوبة إليه من بني العباس بن عبد المطلب ، وفيها قبور عليها نصائب تاريخها بعد الثلاث مئة [1] ذكره الحافظ أبو محمد القاسم ابن البرزالي فيما وجدته بخطه انتهى كلام ابن ناصر الدين ورأيت بها عجائب من رمل أصفر كالورس ، ومنها جبال منحوت فيها بيوت بأبواب صغار منحوتة بإتقان ، ومنها جبال صغار ليس فيها شيء منحوت ، ثم رأيت جبلاً يميناً وجبلاً يساراً كالسور ، من بينهما خندق إلى أوائل أرض العلا العتيقة .

ثم دخلنا المحطة تحت الجبل الغربي العالي غربي العين الجوانية بعد العصر ، فرأينا بالعلا الخير الكثير : حتى أبيع رطل العجوة والرطل التمر بثلاثة .

ثم شاهدت تحت هذا الجبل قبراً فقيل لي : إنه قبر أمير الحاج الشامي شاذ بك الأشرفي ، توفي في العقبة السوداء عند هديّة ، سنة ٨٧٢ ، فصبّرته زوجته ، ثم ماتت هي أيضاً فدفنا جميعاً تحت الجبل الذي بمحطة العُلا غربي العين .

ثم رحلنا بعد يومين بعد الفجر ، فمررنا على العلا العتيقة ، ثم على طويل دغيم ، وهو الذي يقال له فرس النبيّ ، ثم على معرج البغلة

(١) هذا الكلام في مخطوطة « توضيح المشتبه » التي في المكتبة الظاهرية بدمشق .

ثم على مطران الكبير فعشينا به) . انتهى ولكن كلام ابن طولون هذا فيه خلط أيضاً فقد ذكر أنه مرَّ بآبار الحِجْر ، وأوائل مدائن صالح ، ثم ذكر دخوله المحطَّة التي وصفها وصفاً ينطبق على مدينة العُلاَ . ثم ذكر أنه بعد ارتحاله من العُلاَ مرَّ على العُلاَ القديمة ، فهو أدخل (مدائن صالح) بين الحجر وبين العُلاَ وهذا خطأ ، ثم ذكر العُلاَ القديمة ، والعُلاَ القديمة هذه هي مدائن صالح أو مدينة صالح التي أورد النَّص عن ابن ناصر الدين والبرزالي أنها بلد إسلامي . والظاهر أنه نقل النَّصَّ ولكنه لم يعرف الموضع المقصود به ، فوقع فيما وقع فيه .

وقد أشرت فيما تقدم إلى ما جاء في رحلة ابن بطوطة ، ويحسن إيراد ذلك كاملاً ، وإن لم يُضِفْ جديدًا سوى تسمية الوادي ، وإن كنت لست واثقاً من صحة الكلمة للتحريف السَّيء الواقع في كثير من أسماء المواضع في النسخ المطبوعة من تلك الرحلة .

وقال ابن بطوطة [1] : (وفي اليوم الخامس من أيام رحيلهم من تبوك يصلون إلى بئر الحِجْر ، حِجْر ثمود ، وهي كثيرة الماء ، ولكن لا يردها أحد من الناس ،مع شدة عطشهم ،اقتداء بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مرَّ بها في غزوة تبوك ، فأسرع براحلته وأمر أن لا يستى منها أحد ، ومن عجن به أطعمه الجمَال ،وهناك ديار ثمود في جبال من الصخر الأحمر منحوتة ، لها عتب منقوشة ، يظن رائيها أنها حديثة الصنعة ،وعظامهم نَخِرة في داخل تلك البيوت إن في ذلك لَعِبْرَة .

---

(١) ص ١١٢ طبع بيروت دار صادر سنة ١٣٨٤ (١٩٦٤ م) .

ومبْرِك ناقة صَالح عليه السلام بين جبلين هناك ،وبينهما أثر مسجد يصلى الناس فيه .

وبين الحجْر والعَلاَ نصف يوم أو دونه .

والعُلا قرية كبيرة حسنة ، لها بساتين النخل والمياه المعينة ، يقيم بها الحجاج أربعا ، يتزودون ويغسلون ثيابهم ، ويدعون بها ما يكون عندهم من فضل زاد ، ويستصحبون قدر الكفاية .

وأهل هذه القرية أصحاب أمانة ، وإليها ينتهي تجار نصارى الشام ، لايتعدّونها ، ويبايعون الحجاج بها الزاد وسواه .

ثم يرحل الركب من العلا فينزلون في غدِ الوادي المعروف بالعطاس ، وهو شديد الحرّ ، تهبُّ فيه السموم المهلكة ، هَبَّتْ بعض السنين على الركب فلم يخلص منهم إلا اليسير ، وتعرف تلك السنة سنة الأمير الجالقي .

ومنه ينزلون هدية ، وهي حسيان ماء بواد يحفرون به فيخرج الماء وهو زعاق) . انتهى .

بقيت كلمة حول إطلاق اسم (المابيات) على ما كان يعرف قديماً باسم وادي الديدان والرحبة ، ومدينة صالح ، ومدن صالح ومدائن صالح .

لقد سألت كثيراً ممن اجتمعت به أثناء رحلتي إلى العلا [1] عن معنى هذا الاسم ومتى أطلق على هذا الموضع ، فلم أجد جواباً وكل ما علمته ممن سألته أن المابيات بلدة قديمة ، انتقل بعض سكانها في عهود مجهولة إلى بلدة العلا ، ومن أولئك الزحوف .

وقد لاحظت أن اسم المابية في شمال غرب الجزيرة يطلق على موضع

---

(١) انظر « العرب » س ١٢ من ص ١٦١ إلى ص ١٨٥ .

آخر هو اسم واد من الروافد الشرقية لوادي السرحان ، ينحدر من حرة وآكام وحزون تُدْعَى المِسْمَى ، شمال وادي السرحان ، وفي أسفل وادي المابية ماءٌ يدعى المابِيَّة أيضاً يقع شرق الأمغر ، في الشمال الغربي من نقرة حَضَوْضَا ومن هذا الماء طريق يخترق سَبِخَة حَضَوْضا .

ويطلق على وادي المابية وما حوله اسم المابيات . وهو الاسم الذي يطلق على الموضع الذي نتحدث عنه .

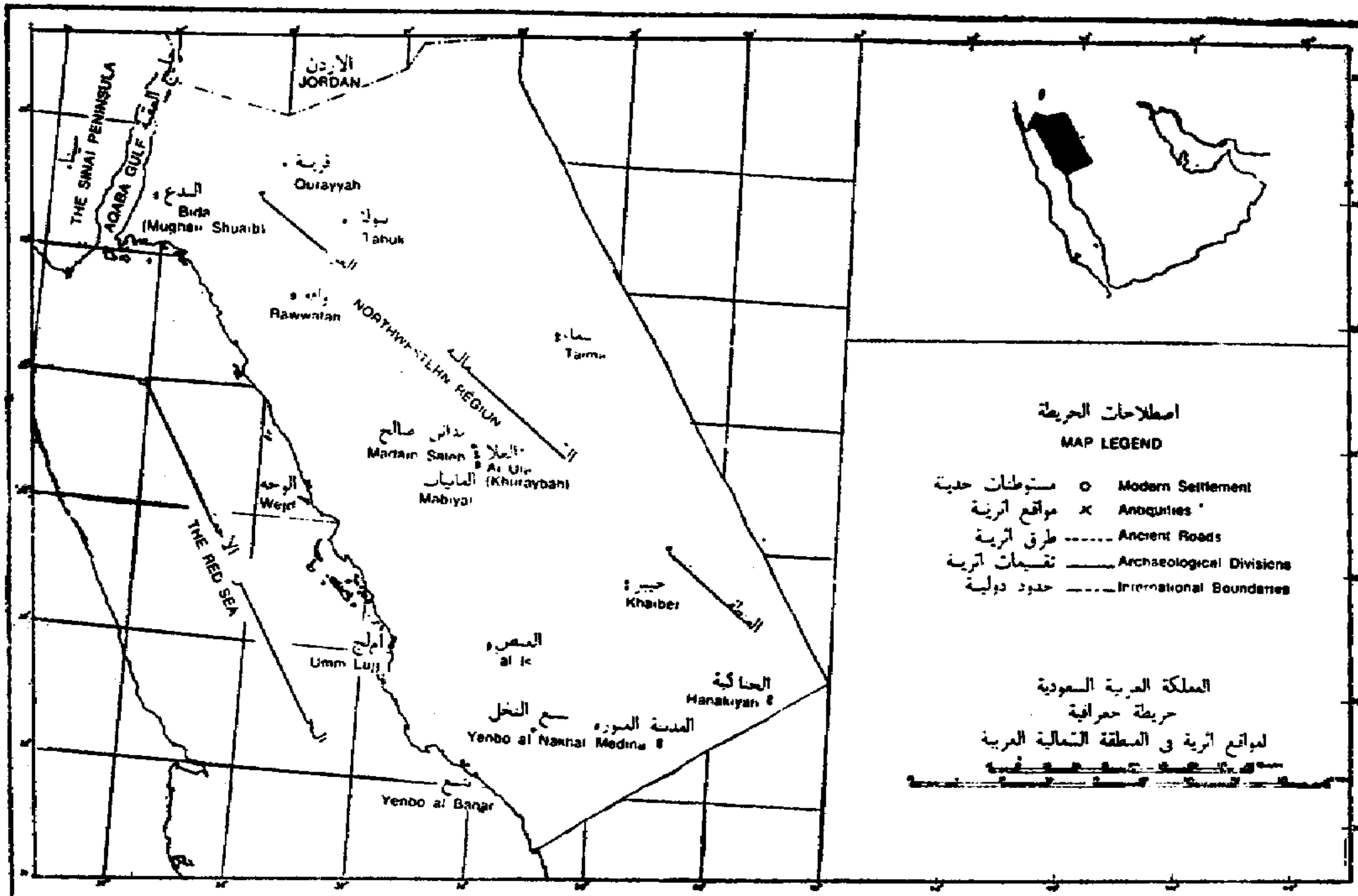
وفي شرق الجزيرة ووسطها موضعان يطلق عليهما اسم : (جّو ما يبات به) أحدهما في القصيم وكان يعرف قديماً باسم جوّ مُرَامر على مايرى بعض الباحثين المتأخرين والآخر يقع شرق الحزول ، فهل هناك صلة بين كلمة (ما بيات) و (مايبات به) يقصد بالكلمة الأخيرة الموضع المخوف الذي لا ينبغي للمرء أن يبيت فيه ، والغالب أن الأمكنةا لتي يفنى سكانها فتخرب تصبح موحشة ، مأوى للأشباح ،ومبعثاً للأوهام التي تحول دون المبيت فيها .

فهل كلمة (مابيات) تؤدي معنى (لا) (مبيت) في هذا المكان الموحش ؟ مثل كلمة (مايبات به) أي ليس صالحاً للمبيت لوحشته ولأشباحه المرعبة ؟!

أو أنه لاصلة بين كلمتي (ما بيات) و(ما يبات به) .

وأن كلمة (مابيّات) هي (موبيّات) وأبناء البادية كثيراً مايبدلون الواو ألفاً . وأن الكلمة من (الوَبَاء) أي أن تلك المواضع (موبوءات) وأن أهلها هلكوا من وباء أصابهم ، ومهما يكن فتعليل هذا الاسم مجرَّدُ رأي ، لست منه على يقين .

وها هو رسم يوضح كيف طغى اسم (مدائن صالح) على (الحِجْر) الاسم الصحيح لهذا الموضع ، وهو منقول عن كتاب أصدرته (إدارة الآثار) في (وزارة المعارف) .


الأردن
JORDAN
THE SINAI PENINSULA
AQABA GULF
قرية
Qurayyah
تبوك
Tabuk
البدع
Bida
(Mughair Shuaib)
Rawwafah
NORTHWESTERN REGION
Tarma
مدائن صالح
Madain Saleh
العلا
Al Ula
(Khuraybah)
Mabiyat
الوجه
Wejh
THE RED SEA
خيبر
Khaiber
al Is
أملج
Umm Lujj
الحناكية
Hanakiyah
المدينة المنورة
Medina
ينبع النخل
Yenbo al Nakhal
ينبع
Yenbo al Bahar
اصطلاحات الخريطة
MAP LEGEND
مستوطنات حديثة o Modern Settlement
مواقع أثرية x Antiquities
طرق أثرية Ancient Roads
تقسيمات أثرية Archaeological Divisions
حدود دولية International Boundaries
المملكة العربية السعودية
خريطة جغرافية
لمواقع أثرية في المنطقة الشمالية الغربية